نفس المرأة

تابع صفحة ١٦٤

هل المرأة ارقى شعوراً من الرجل — منذ خمسين سنة قام جدال بين علماء النفس على انحطاط احساس المرأة فذهب لومبروزو وتلامذته الى ضعف شعورهـا وخالفه في رأيه مانتكيزا ومن تابعه و يتطوي في هذين المبدأين العامين نظريات ثانوية لا تكاد تحصى وانما نشأ تنافضهم عن اقتصار الباحثين على بعض الموضوعات المحدودة واوسع مجال الاختلاف ان التجارب انجزت في ممالك مختلفة وبما لا ريب فيه ان للبيئة وطرز المعيشة تاثيراً في الشعور فالبرابرة اقل شعوراً بالالم من المتمدنين وهؤلاء متفاوتون ايضاً في شعورهم فان ابناء الطبقات العالية المترفين ممن الفوا الرفاهية ونعومة العيش يشعرون بالالم فوق شعور المزارعين ومتى علمنا ذلك لم يسعنا ان نعزو التفاوت في الشعور الى الجنسية بل الى احوال الحياة التي تفرق بين الجنسين

قلنا ان بين العلماء اختلافاً كبيراً على ارتقاء حواس المرأة وانحطاطها وقد استشهد القائلون بانحطاطها على زعمهم بانها لا تستطيع التمييز بين انواع الخمور المختلفة وذلك يشير الى ضعف حاسة الذوق و يقولون مثل هذا في سائر حواسها فيفند المعارضون حججهم قائلين انما عجز المرأة عن التمييز بين صنوف الخمر لانها لا تدمنها كالرجال والمدمنات منهن يضارعن في ذلك ارقى الرجال

اما شدة احساسها بالالم فيفسر كثرة الآلام التي تنتابها و يقول مانتكيزا ان شعورها به اضعاف شعور الرجل و يذهب سرجا الى ما يناقض ذلك فيقول ان المرأة سريعة الانفعال كالطفل فتذري العبرات عند اقل طارئ، وتبدو على محياها علائم الالم غير ان النساء الكثيرات الامتزاج بالرجال اللواتي يمارسن حياة العمل يصبح دمعهن عصياً فيتجلدن على احتمال المصائب والاوجاع و يتصلبن على لقاء الخطوب و يقول لومبروزو ان ضعف حواس المرأة نعمة كبرى على المجتمع اذ يسهل عليها تحمل الام الحمل والوضع

سبب الانفعال — نعود في ذلك الى آراء الفسيولوجيين فقد برهنوا انه لتسق معيشة المرأة في جسمها ونفسها لان حياتها المنزلية واقتصارها على انجاز الواجبات العائلية قلل من مناعة جسمها وخفض من مضائها ونشاطها وقال بان « تنمو العواطف الرقيقة حيث يضعف النشاط » على ان سرعة الانفعال لا تعود الى تركيبها العضلي بل تعزى الى فقر

الدم الناشيء عن قلة التمرين فالنساء العاملات اقل تعرضاً للانفعالات التي تنكد عيش غيرهن من النساء وقد قال احد الباحثين ان امرأة العصور القديمة تختلف كل الاختلاف عن امرأة اليوم

ولا ريب في ان دخول النساء في الحياة العامة واساليب تهذيبهن التي تبدلت كان لها اثر على حياتهن المعنوية فكلما تحككت المرأة بالرجل فقدت صفاتها الانثوية فهل يأتي يوم تضمحل فيه خواصها المميزة ؟ ان ذلك بعيد الاحتمال

استبحار العمران وانتشار التمدن يخففان من الم المرأة الناتج عن الامومة فهل يرجى ان يقويا على هاتيك الاوجاع حتى يلاشياها ؟ والذي نراه ان الامومة كان وسيكون لها الى الابد شأن

الحب والجمال المعنوي = انما نحسره المرأة مادياً تربحه معنوياً وهذه الامومة تكبدها آلاماً لا تطاق الا انها تعطيها ارقى الصفات التي يمتاز بها الجنس البشري وهي الحب والحنان فالمرأة في سهرها الدائم على طفلها وعنايتها به يرتقي شعورها بالمحبة والعطف

في حب الامهات تسطع اسمى عاطفة في الوجود و يزدهر رجاء لاحد له نقر به عين الانسانية و يتفجر ينبوع هذا الحب في كل مكان فيرسم على كيانها آثاراً لا تمحى . ولا يضمحل حب المرأة الا بانقراض رجل آخر فاوتباطها بوجودنا يحملها على حفظ العهود وصيانة المواثيق و يحق للمرأة ان تفاخر بوظيفتها الاجتماعية فان الامومة هي مصدر الفضائل والمحبة الغيرية التي يحيا بها المجتمع الانساني . وهذا الحب الشديد الذي يفصل بيننا و بين الرجل ليس الا ليبوئها في الهيئة الاجتماعية مكانة اسمى من مكانته اذا اعيا تكافل الجنسين دون مساواتهما في العظمة واشتراكهما في مقاساة الآلام

كذب المرأة = تنمو على شجرة حياة المرأة في احوالها المختلفة فروع تخيل للرائي انها المميزات الفارقة بين الجنسين وكثيراً ما يمر بها المفكرون غير محفلين بالاسباب الطارئة التي جعلت بعضها نضيراً زاهراً يستهوي العيون مرآه والآخر ذاوياً جرفاً ينبو عنه البصر على انا اذا بدلنا بيئة الشجرة تلاشت الفروع القابلة ولو احاطت بالمرأة ظروف الرجل لكان لها فضائله وسيئاته

ومما وجدنا العجز من رأي من يأخذ على المرأة اعتلالها باسباب الرياء وهي سلاح الضعفاء في النزاع الحيوي ولا بد لنا من كلام يزيد القضية وضوحاً ونحن نرى علماء النفس على اتفاق في هذا الحكم الذي يشمل المجتمعات الانسانية الى ادناها فاذا قضي على الضعيف

ان ينازع القوي ، مال الى المراوغة والكذب وذلك شأن المرأة فكلما تحرج موقفها لجأت الى الى الافك والبهتان ذوداً عن نفسها و يقول سبنسر » ان الكذب يرافق كل حالة اجتماعية قائمة على دعامتي القوة والخوف قوة السائدين وخوف المسودين قوة واقتداراً » غير ان الفلاسفة والمشرعين وعلماء النفس والشعراء والقصصيين اغضوا عن مصدر الشر وجعلوا الكذب صفة غريزية في المرأة اما الشارعون فحرموا المرأة حتى الشهادة زاعمين انها اقل صدقاً من الرجل فادى ذلك الى استطرادها في هذا السبيل وما كان الا ليؤيد نفاسة الرجل فشقاؤها ورياؤها متلازمان والآلام التي يكبدها اياها تفسد نظام حياته العائليه فالمرأة عنصر يدخل في حياة الرجل وفي وسعه ان يطهر ذلك العنصر او يفسده

نفث في روعها انها لم تخلق الا لارضائه فتوسلت الى هذه الغاية بوسائل مهلكة واضطرت ان تتصنع لتستر الطواريء التي نم بها قذهب بروعة جمالها ومالت الى استغوائه بهرجتها فتزينت وتبرجت وتخيرت جملا عذبة تسردها عن غير شعور وزاع بها هذا التصنع عن طبيعتها واكسبها صفات مستنكرة حتى سهل عليها بتوالي الازمان كتم عواطفها والتظاهر بما لا تحس به ، فاصبحت تصرخ اذا مستها شوكة وتبالك اذا استنرق الالم وجودها والتمست من الرجل ان يحميها لانها راته يميل الى المرأة الضعيفة

ثم ضعفت فيها ملكة النقد والتمييز بالمحال تتقيقها فاصبحت تنظر الى المحسوسات نظراً مزوراً وتفسرها على غير حقيقتها ولم يشعر الرجل الا والمرأة قد تبدلت فبات ينكر الصفات التي اقادها اياها الافك وعبث كل العبث في المجتمع حتى اصبح دعامة الحياة العامة

كذب الرجل = لا ننكر ان المرأة اشد رياء من الرجل غير انه ليس بفائق هذه الصفة وانما الفرق في الكمية لا في الكيفية وقد تكذب المرأة وتداجي فلا تجر مداجاتها على الهيئة الاجتماعية ما يجره بهتان الرجل من الويلات فما يسمم وجود نا من الشوائر الكاذبة و بما هد بيتنا و بين الغبطة بظهر لا بين الافراد فقط بل بين الاجناس والشعوب وما السلم المسلح سوى اكذوبة هائلة نفذت الى جميع الضمائر فمن التهذيب العام والخاص وعلاقات الطبقات الاجتماعية ومبادىء الحكومات والعدل وتحديد حقوق الوطنيين وواجباتهم تتولد تلك الآفة الهائلة فتفسد البيئة التي نعيش فيها وهذه العواطف تحدث وحيلة انخداع الوطنية مدربة المنافع الذاتية والتزويز عنصراً جوهرياً للحياة فالسلطة الفردية تستعين بالقول ان حق الملك من حق الله والديمقراطيون ينادون بوجوب المساواة وكلا الفريقين تلوح الى القبض على السلطة ولم يكشف مدعو الوطنية بادخال السم في الحياة العامة حتى

جاهروا بذلك غير خجلين وقد اقترت الانسانية على الديانات والادبيات فبينما ترى التعاليم الدينية تقضي علينا بمحبة القريب نجد المتدينين يتنازعون ويتقارعون والشعوب تتطاحن في مضمار الجهاد

والصنائع من ارقاها الى ادناها مدعومة بالافك والتزوير وهؤلاء السياسيون يأتون ضروب الغش والرياء ويرتكبون المناصب على سلم من المواعيد التي يستحيل تحقيقها وكلما قام مصلح لمناهضة البهتان رموه بضعف الوطنية وكل ذلك من اجل الرجل

وحسبنا بما تقدم دليلاً على مبلغ الرجل من الافك مما حمل المرأة في دورها على اقتفاء آثاره موقنة بضعفها الطبيعي وعجز متنها فاقتصرت على الاكاذيب البسيطة واقرط رفيقها في البهتان

يستحب الرجل في شريكة حياته الرقة والخضوع شأن كل كائن قوي فيزيتها في عينه وداعة الورقاء ويحبب اليها القوة والرجولية ومهما بلغ من اخلاقه فالمرأة مدفوعة الى مجاراته على اهوائه احتفاظاً بمحبته وصيانة للنوع الانساني فلم يكفها في ذلك جمالها ورقتها بل سعت الى استرضائه بمغالبة فطرتها توسلاً الى بلوغ هذه الغاية وما وقفت عند حد التبهرج والدلال بل اتخذت مظهراً معنوياً ملائماً لميوله فتاصل حب الاسترضاء في نفسها حتى غدا لها طبيعة ثانية واثرت فيها الوراثة والانتخاب الطبيعي حتى حسبت ارضاء الرجل الغاية الكبرى من حياتها واوتاح الرجل الى تلك المظاهر ماخوذاً بما فيها من الروائح الخلابة فالهته ريا الزهر عما فيه من السم الزعاف واستفادت المرأة بجهودها في استمالته ولو شوهت تكوينها المعنوي فاصبحت كثيرة المجاملة قديرة على كتمان عواطفها تتظاهر بالايتساء والعاصفة تثور في داخلها لتلقي الى نفسها ستاراً وخادعت شريكها بقولها وسرعان ما تساماتها فبرهن ذلك على انها لم تخسر طبيعتها الانسانية في عصور العبودية والرق فهي تأنف لتحفظ مزيتها الانسانية مما يدل على ثباتها وصلابتها ومناوءتها لما ساءها الرجل من الحيف والضغط

تعاقبت القرون وتاثير الاحوال الخاصة يعمل في نفس المرأة حتى جعل لها سمة خاصة فطوت في ارضاء الرجل جميع غايات حياتها الدنيوية غير عابئة بما يسومها من ضعف فضيلتها ولكن مروءة النفس البشرية لا نهاية لها وفيها استعداد تام للرقي المعنوي فما زالت الظروف التي تبدل من وجدانها نشطت لحرية واستعادت ما فقدته من المواهب وخرجت الشعوب المتحيطة من بيئتها المظلمة لتضارع ارقى الشعوب مدنية ويكفي لحر تاثير عشرين قرناً عليان او ثلاثة اعقاب فهذه قبائل الماوريس كانت منذ قرن واحد سادرة في ظلمات الجهل

فما فتح لها باب المدنية حتى ضربت فيها بسهم وافر ونساؤها اليوم لسن دون النساء الانكليزيات وزنوج الولايات المتحدة عدوا منذ مائة عام بين احط الشعوب الافريقية وقد بلغوا اليوم شأواً بعيداً في الحضارة وشغلوا مركزاً رفيعاً في عالمي الاقتصاد والاجتماع

وكان يحق لنا اليأس من المستقبل لولا ان الانسان استطرق في سبيل الاسلاف واضاف الى النقائص الموروثة ما تتجه العصور بتواليها غير ان النفس مرنة ومرونتها تنعش الرجاء بالمستقبل والمرأة في ذلك على مستوى الرجل فيتبدل تهذيبها ومركزها الاجتماعي تستعيد الصدق احدى صفات السادة وتهجر الرياء وهو تركة عصور العبودية وعلى هذا المنوال يتغير مجموع الصفات الانثوية لان نفوسنا تتكيف على ما يلائم شروط البيئة فلم يخلق الرجل ولا المرأة كاذبين او صادقين فاذا مازج البهتان حياتنا لم يكن الا عقبى الصلات التي ربطت الجنسين

بعض المميزات — تنبهت في المرأة خاصتا الفهم والملاحظة لتستكشف مقاصد الرجل وتعمل على بلوغها فاكتسبت من بيئتها فضائل خاصة كما استفادت نقائص خاصة فاصبحت قادرة على التخلص من المآزق والنظر في اعماق نفس الرجل لمعرفة مظان الضعف فيها فعرفت كيف تلطف بكلماتها العذبة آلامنا وتهيج اشواقنا واصبحت مداهنتها اوضح اثراً واشد فعلاً واستطاعت لنقص شخصيتها ان تمتزج بشخصية الرجل اذ لا يمنعنا من الانقياد الى الغير سوى وثوقنا بالقوة واعتمادنا على الذات اما المرأة ففقدت هاتين الخاصتين واستغرقت في حياة الرجل واصبحت العنصر الجوهري لسعادتنا وشقائنا

ثم ان نفسها الساكنة جعلتها ايسر انفعالاً فحبها بغضها واعجابها فوق ما يشعر به الرجل على ان الايام لا بد ان تختف من هذه العواطف

مالت المرأة الى الوهم ذلك الشعور المبهم العقيم ووجدت من تهذيبها ما ينزع بها هذا المنزع فولعت بقراءة الروايات وشغلت جل افكارها في الحب لانها تحيا للحب وعكفت على مطالعة الاقاصيص الغرامية فاصبحت لها كالحب مصدر عواطف لا ينضب غير ان انصرافها الى القصص اضعف فيها ملكة الذكاء

التصورات الحبية — مال الرجل في دوره الى الغرام وما وجد اجمل من حديثه وقمأ في نفس المرأة فاصبح للحكايات الخيالية الشان الاكبر في حياتنا وهي غير جديرة بالنظر وغدا القصصيون من رجال ونساء قادة الانسانية يضعون دعائم مستقبلها واشتغل الناس بالاوهام والاحلام عن الحقائق الثابتة ولعل مؤرخاً بنشأ في القرن الثلاثين ينظر الى ولوعنا بالخيال هازئاً بما ندعيه من الرقي العقلي وربما اوقفنا في مستوى المصريين القدماء